المحور الثانى

حرب دخلت التاريخ

١ ٥ يونيو فى وجدان جيل جديد

٢ مفاجأة أكتوبر

٣ هكذا علمنا أكتوبر

٤ فى مواجهة الأمية السياسية

٥ أسلوب إدارة الأزمات: نموذج طابا

٦ دروس للمستقبل

٧ طموحات.. ورجال

٨ رموز خط بارليف

٩ ثأر جيل

١٠ قرار يغير التاريخ

١

٥ يونيو فى وجدان جيل جديد

ربع سكان مصر على الأقل من الشباب الذين لم يتجاوزوا الثلاثين من العمر، هم الآن على وشك تولى دورهم فى القيادة وتحمل المسئولية فى مواقع مختلفة فى الإنتاج والخدمات أو فى الفكر والثقافة، وهم يمثلون جيلاً جديدًا مختلفًا عن الجيل السابق اختلافا كبيرًا.. أنضجتهم التجارب والمحن.. وعاشوا تقلبات وأحداث كبرى.. واضطروا إلى تغيير منطلقات فكرهم وفلسفة حياتهم أكثر من مرة، وأصبحوا أكثر قوة وصلابة، ولكن أثر النكسة مازال جرحًا غائرًا فى أعماق الوجدان لا يقل ألمًا عما قاساه الجيل السابق.

وإن كان أبناء هذا الجيل قد اكتووا - كغيرهم - بنار الهزيمة إلا أن ما بقى فى ذاكرتهم عنها لا يزيد على بعض مشاهد غامضة، ومازالوا يمارسون حقهم فى طرح أسئلة ظلت معلقة بلا إجابات، ومن حقهم أن يجدوا إجابات صحيحة لا تصدر عن أصحاب الثأر التاريخى الذين اعتبروا هذه النكسة فرصتهم للنيل من صورة ٢٣ يوليو وقادتها.

مازالت معظم الكتابات عن ٥ يونيو تعبيرا عن حملة مقدسة لتشويه كل شىء يتعلق بتلك الفترة، بينما اختفى - بالموت - كثير من شهود الرؤية وأكثر من بقى منهم آثر الصمت إما تحت وطأة الشيخوخة، أو زهدا فى دخول معركة ليس فيها حتى الآن فرصة للإنصاف، مادامت أحكام الإدانة جاهزة قبل المداولة، حتى قبل الاستماع إلى أى مرافعة أو دفاع فى القضية.. والذين يتولون الحكم على النكسة لا يصلحون لولاية القضاء فيها

لأنهم خصوم يسهل ردهم بسببها، وسوف يأتى وقت قريب يعود فيه الهدوء إلى العقل، ويظهر مؤرخون حقيقيون محايدون ليدرسوا لنا بمناهج العلماء ما جرى. بروح الإنصاف، ويفرزوا لنا الحقائق من الأكاذيب

حقيقة أننا نشعر بأن معرفة التاريخ الحقيقى لأى حدث من الأمور الصعبة لعدم توافر الوثائق التى هى الأصل والأساس لدراسة أى حدث تاريخى، وكل ما لدينا حتى الآن شهادات لأشخاص بعضهم كان يعلم ولم يقل الحق، أو لم يقل كل الحق، أو لم يقل شيئًا غير الحق، وبعضهم له مصلحة، فى تجريح كل القيادات والتشكيك فى كل السياسات، يضاف إلى ذلك أن من حاول الكتابة الموثقة تعرض لحملات جعلته يؤثر الصمت ترفعا عن الخوض فى معارك أقرب إلى عراك الصبية منها إلى خلافات الباحثين، خاصة بعد أن ظهر فى السوق من يعرض بضاعة تاريخية حاضرة «تفصيل» وبالطلب، وفقًا لأى مواصفات مطلوبة.. مؤرخون أقرب إلى كتاب الدعاية السياسية.. وصحيح ما يقال فى مثل هذه المناسبة من أن المؤرخ المحايد والموضوعى لا يظهر إلا بعد عشرات السنين - وربما أكثر - بعد أن يختص أصحاب المصالح والأطراف الضالعة فى الأحداث، ويتاح الإطلاع على الوثائق، ويسهل تقييم الخبيث من الطيب مما فى شهادات الرواة.. ويضرب لذلك عادة مثل الثورة الفرنسية التى يعيد المؤرخون تقييمها الآن - بعد مرور قرنين كاملين - لأنهم يرون أنهم الآن فقط يستطيعون أن يصلوا إلى الحقيقة بغير ضغوط أو مؤثرات، ودون خوف أو إنتظار لثمن!

ويقال ذلك أيضا عن الثورة الروسية، وغيرها من الأحداث الكبرى، وهو أولى أن يقال عن نكسة ٥ يونيو.. وثورة ٢٣ يوليو.. وعن حقبة عبد الناصر، والسادات.. وعن سائر الأحداث والتطورات الكبرى.

ولكن قد يمكننا الإنتظار لتفهم حقيقة أحداث كثيرة. والأمر بالنسبة للنكسة يختلف، لأن وصول جيل إلى مواقع القيادة فى وطنه وهو يعانى من

شرخ وتصدع فى بنائه النفسى سوف يكون نوعًا من المخاطرة، ويكفى هذا الجيل أنه تعرض لمحاولات، ومؤامرات، عديدة للعدوان على عقله وشخصيته وسلامته النفسية. فإن جيلا من أجيالنا لم يتعرض للحرب النفسية بكل صورها مثلما تعرض لها هذا الجيل.

من المهم أن نتفق على أن نكسة يونيو لها أسباب عديدة، ولكن السبب الجوهرى الذى يسبق ما عداه هو غياب الديمقراطية وقد أثبتت النكسة - بالدم والخراب - أن ترك مقدرات وطن فى يد فرد - مهما تكن عبقريته - له وحدة القرار استنادًا إلى حكمته، أو صدق رؤيته، أو الإلهام التاريخى الذى ينفرد به، هو مخاطرة يدفع الوطن كله ثمنها. وأن صدور القرار من المؤسسات الدستورية الحقيقية، وبعد مناقشة حرة حقيقية وتعبير حقيقى عن الإرادة الشعبية هو العاصم الوحيد من الوقوع فى الخطأ القاتل الذى قد يستحيل تداركه. ومع اختلاف كبير فى الطبيعة والظروف والأسباب، فلقد كان غياب الديمقراطية والمؤسسات والمشاركة فى القرار سببا فى الخراب الذى يعانى منه شعب العراق الشقيق الآن..

والحديث عن حرب ١٩٦٧ هو مناسبة لتأكيد حقيقة هى من مسلمات الفكر والواقع المصرى. هى قوة الوحدة الوطنية فى مصر فى أوقات الأزمة.. لم يفرق رصاص العدو بين دم المسلمين والأقباط ولم تظهر بعد النكسة نغمة التفرقة الطائفية بأى صورة من الصور، وظهرت فى المحنة حقيقة ومعدن الشعب المصرى الواحد.. وكلما كانت المحنة شديدة كانت اختبارًا أكبر لصدق النوايا وحقيقة النوازع. وقد عاش المصريون أسوأ أيام الهزيمة وأعظم أيام الانتصار معًا..

من حقنا أن نتساءل اليوم - بعد ٢٥ عاما - لماذا يصر البعض على أن يعمق فى داخل الوجدان المصرى شعور الهزيمة والهوان كلما تناول هذه النكسة.. ولا يريد هؤلاء أن يدركوا أن شعب ٥ يونيو هو ذاته شعب

٦ أكتوبر.. وأن المعين الذى جاء منه جنود ٥ يونيو هو ذاته الذى جاء منه جنود ٦ أكتوبر.. الفارق فى المناخ العام.. والقيادة بما فى ذلك أساليب التفكير والاعداد والتخطيط وإدارة المعارك.. لهؤلاء نقول إن الشعب الذى إنهزم فى معركة، تجاوز الهزيمة، وانتصر وإسترد ما فقد فى معركة أخرى ووقف على قدميه ورفع رأسه، وسوف يظل رافع الرأس.

٢

مفاجأة أكتوبر

كانت فى معارك أكتوبر وانتصاراتها أكثر من مفاجأة تحدث عنها الباحثون فى مراكز الدراسات الاستراتيجية فى العالم وأصبحت جزءا من مقررات الدراسة فى الكليات العسكرية ومعاهد الاستراتيجية مثل: المفاجأة فى قرار الحرب وسط جو داخلى وخارجى لم يكن مهيأ لاتخاذ مثل هذا القرار أو هكذا كان يبدو، ومثل المفاجأة فى اختيار الوقت الذى كان هو الآخر يبدو أبعد الأوقات المناسبة عن الأذهان.

ومثل المفاجأة فى السلاح وبخاصة الصواريخ، أو المفاجأة فى ظهور المقاتل المصرى بهذه القدرة على استيعاب السلاح واستخدامه بما لم يكن يخطر على بال.. أو مثل المفاجأة فى الموقف العربى الذى تحول فى لحظة من التمزق إلى التماسك بل وإلى الوحدة التى عبرت عن نفسها فى الاستخدام العربى لسلاح البترول ولم يكن العالم يتصور أنها يمكن أن تحدث وبمثل هذه السرعة وهذه الصلابة.. هكذا الحديث عن حرب أكتوبر هو حديث عن سلسلة من المفاجآت كما بدت أمام العالم، حتى أن من يتابع ما كتب عنها فى الشرق أو الغرب سوف يجد نفسه أمام حرب يمكن تسميتها «حرب المفاجآت». ومع ما فى ذلك من صدق فإن المفاجأة الكبرى فى هذه الحرب كانت هى «الإنسان» المصرى، حين ظهر فى لحظات الخطر بكل هذه القوة والصلابة وتحول من الاستسلام للهزيمة إلى إرادة لا تقهر لتحقيق النصر.

كان ذلك مفاجأة لأن الراصدين لحركة الإنسان المصرى تصوروا أنه انهزم من الداخل منذ ٥ يونيو ٦٧، وتصدعت شخصيته، وإنهارت قواه

الروحية، ولم يعد صالحا من الناحية العقلية والسيكولوجية لخوض معركة وأبعد من ذلك أن يكون هو فيها المهاجم.. واستراحوا إلى تحليلات صاغوها قالوا فيها إن التدمير الذى حدث فى ٦٧ أصاب صميم الشخصية المصرية بحيث استسلم المصريون للهزيمة وقر فى قرارهم أنها قدر مكتوب عليهم لن يستطيعوا تغييره، وما يتردد فى أقوالهم عن حتمية المعركة وضرورة الانتصار فيها ليس إلا نوعا من التمنى، أو أحلام اليقظة، أو نوعا من تغطية موقف الهزيمة وإخفاء المشاعر الحقيقية فى داخلهم بأنه لا مهرب من هذه الهزيمة ولا فكاك.

قال ذلك المحللون لما يجرى فى المجتمع المصرى منذ ٦٧ وحتى ٧٣ وقالوا أكثر منه، إن المصريين تكيفوا مع الهزيمة كما تدل على ذلك نكاتهم وتعليقاتهم الساخرة أحيانا والتى تفيض مرارة أحيانا أخرى، وقالوا إن النكتة أصبحت تحدث لدى المصرى نوعًا من الترضية الذاتية تريحه وتريح غيره ممن يستمع إليها، وتصرفه عن الواقع الأليم الذى لم يعد قادرًا على تغييره..

وقالوا إن الحرب ليست مجرد جيش يواجه جيشا آخر، ولكنها مجتمع يدخل بكل عناصره ومقوماته فى لحظة الصراع مع مجتمع آخر، تمامًا كما تدور معركة بين إنسان وآخر، لا تتوقف نتيجتها على مدى قوة الذراعين أو الساقين لكل منهما وهى وسائل الإنسان فى الضرب والدفاع - ولكنها تتوقف على حالة القلب.. وضغط الدم.. ومستوى السكر.. وكفاءة الكلى والمخ والعضلات والشرايين والأعصاب والمخ.. الإنسان كله فى لحظة يحتشد، ويصارع، وإن تكن الأداة فى الصراع هى الذراع.. كذلك الجيوش ليست إلا ذراع المجتمع، والحرب هى لحظة يقف فيها كيان البلد كله بما فيه من أبنية سياسية واجتماعية واقتصادية، وبما لأبنائه من روح معنوية فى

مواجهة كيان آخر.. ومادام المجتمع المصرى - كما تصوروا وقتذاك - ليس مستعدا لهذا الصراع فلن تكون المعركة إلا مجرد شعار مرفوع، وموضوعا للخطب تلتهب بعده الأكف بالتصفيق كعادة الشرقيين!!

قالوا كثيرا فى هذا المعنى، حتى اطمأنوا إلى أقوالهم وتحليلاتهم إلى أن جاءت الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر ليشهدوا صورة هى المفاجأة الكاملة، صورة المواطن المصرى البسيط يحمل سلاحه، ويواجه لحظة الخطر بقوة نادرة، ويقتحم النار وهو يهتف من أعماقه «الله أكبر» ويتحرك فى ساحة المعركة بمقدرة وشجاعة تفوق ما سجلته الأساطير عن حكايات البطولة وانعدام الخوف من قلوب الرجال.

كان المصريون هم مفاجأة حرب أكتوبر-دون أن نقلل من أهمية المفاجآت الأخرى- فقد استطاعوا فى لحظة أن يرتفعوا إلى مستوى نادر من الوعى والإرادة والقوة، وإلى رغبة نادرة فى التضحية، وإلى قدرة نادرة على تحقيق المستحيل.. وأثبتوا أن أى هزيمة تلحقهم- مهما يكن حجمها - لن تستطيع أن تقتلهم، وأن الروح التى عاشوا بها منذ سبعة آلاف سنة وحققوا خلالها معجزات كثيرة، يمكن ان تختفى تحت السطح طويلا، لكنها سرعان ما تظهر فى اللحظة التى تشعر فيها أن كيانها ذاته فى خطر..

هذه المفاجأة لم تحدث فى ٦ أكتوبر ثم إختفت كما قد يظن البعض، ولكنها هى روح المصريين، دائمة، وباقية، فقط تحتاج إلى معركة حقيقية لتظهر فيها، وما أكثر المعارك التى تنتظرنا لإعادة بناء مصر على أسس جديدة، ولهذا فما أشد حاجتنا إلى استعادة روح أكتوبر فى نفوس المصريين.

ولقد قيل إن من أسباب هزيمة ٦٧ أن الضباط المصريين كانوا يقولون لجنودهم «تقدموا» دون أن يتقدموا هم، بينما كان ضباط أكتوبر يقولون

لجنودهم «اتبعونا» ويكونون هم أول مـن تحرقـهم لهيـب المعـارك، ولذلـك كان عدد الضحايا من الضباط قريبا من عدد الضحايا من الجنـود لأول مـرة فى المعارك المصرية الحديثة. وهذا هو مفتـاح النصر فـى كـل معركـة.. أن تتقدم القيادات، وتضحى، وتضرب المثل، لتجد الجنود بـالملايين خلفـها، مستعدة للتضحيـة بكـل شـىء، ولـن تكـون الـروح ذاتـها غاليـة فـى هـذه اللحظة.

(٣)

هكذا علمنا أكتوبر...

هل ما حدث فى أكتوبر كان فلتة أو صدفة كما يقول البعض. هل كانت مصر جسدا ساكنا ثم انتفضت فجأة فيما يشبه المعجزة يوم ٦ أكتوبر ثم عادت بعد ذلك جسدا ساكنا كما كانت..

مثل هذا القول فيه ظلم كبير. فالحقيقة أن يوم ٦ أكتوبر لم يكن إلا لحظة فى التاريخ كشفت الغطاء، فظهر الجوهر من تحت الركام. وليس فى هذا غرابة.. انظر إلى بطل رفع أثقال، هل تراه رافعا أثقاله طوال النهار والليل، أم تراه هادئا ساكنا يعيش كما يعيش سائر الناس، ثم فى لحظة يستجمع قواه فيقدر على فعل ما لا يفعله سائر الناس..؟.

ألا نقول إن هذه اللحظة هى المقياس الحقيقى للقوة والقدرة..؟ ولا تقاس القوة إلا فى هذه اللحظة دون سواها..؟ هكذا مصر بالضبط، فإن لحظة ٦ أكتوبر هى لحظة إدراك، واستنفار، كشفت قوتها الحقيقية، هذا أيضا رد على الذين يقولون إن ٦ أكتوبر غير قابل للتكرار. وعلى الذين يقولون إن روح ٦ أكتوبر لم تعد سارية فينا..فكل هذه مقولات تسقط فى لحظة الاختيار.. لحظة الحسم والفعل.. لحظة انطلاق المارد بحجمه الحقيقى. وهى لحظة لا تخلق حقيقة جديدة ولكنها تكشف عن حقيقة موجودة وقائمة طوال الوقت ولكن لا تراها العيون.. ومجالها ليس الحرب فقط. ولكن التكرار ممكن فى كل مجال للتحدى.

ومهما يقال عن عوامل النصر فى أكتوبر فسوف يبقى العامل الأساسى هو الإنسان المصرى.. هذا الإنسان الذى أكد أنه - بقوته وعقله - لا يقل

عن القنبلة الذرية كما قال الرئيس مبارك. ولذلك فإن الاحتفال بذكرى أكتوبر - مهما تنوعت مظاهره - ليس له إلا معنى واحد هو تكريم المقاتل المصرى فى كل موقع وعلى أى مستوى.. من القائد الأعلى إلى أصغر جندى كان فى أبعد دشمة. أما التكريم الأكبر - فوق ذلك وبغير حدود - فليس هناك من يستحقه مثل الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم، لم يرفعوا عقيرتهم بالغناء، ولم يرفعوا اسم مصر بانتصارات فى لعبة رياضية. ولكنهم رفعوا اسمها فى الميدان الحقيقى - والاسمى - الذى ترتفع فيه أسماء الأوطان، وصنعوا - حقيقة لا مجازًا - العزة والكرامة لأمتهم، وسطروا تاريخ بلدهم بالدم وليس بالمداد، وببلاغة الموت وليس ببلاغة الألفاظ والأشعار.

ولعل أبلغ كلمات تترجم ما أريد أن أقوله شعار رأيته يملأ سماء العراق كلها من أقصى نقطة فى الجنوب عند «الفاو» إلى أقصى نقطة فى الشمال على جبال محافظة «أربيل» وهو شعار صحيح ولو أنهم كانوا يتاجرون به ويفرغونه من مضمونه، ويطلقونه على شهداء العراق فى الحرب المجنونة ضد إيران بغير هدف يقول: «الشهداء أكرم منا جميعا» ففى هذا الشعار ليس فقط معنى الاعتراف، ولكن فيه معنى أن المقاتلين الأبطال الذين خرجوا من المعارك أحياء كانوا رجالاً وحاربوا وعاشوا، أما الشهداء فلهم درجات أعلى لأنهم كانوا رجالاً ودفعوا الحياة ذاتها ثمنا.. ولذلك فهم أعلى منزلة وأكثر استحقاقًا للتكريم. وأعتقد أن هذا الشعار ذاته يعيش فى أعماقنا نحن أيضا، وإن لم يظهر - بعد - بمثل هذه القوة.

ولكى نترجم هذا الشعار أو الشعور - النبيل ونعطيه معناه الحقيقى - بعيدًا عن المزايدات الدعائية العراقية المعروفة - لابد أن يصبح يوم ٦ أكتوبر هو «يوم الشهيد» تنطلق فيه الدولة - بوزاراتها وأجهزتها وإذاعاتها وقنوات تليفزيونها - إلى بيوت الشهداء بيتًا بيتًا. ليعيش كل شهيد من جديد ويتنفس - من خلاله أبناؤه وأسرته - ويشاركنا احتفالنا بهذه الذكرى.

وكل أسرة شهيد لديها مشكلة لابد أن تجد حلا لمشكلتها فورًا فما دام الشهيد «اكرم منا جميعًا» فإن مشاكل أسرته يجب أن تحل قبل مشاكلنا جميعًا، وهذا يستدعى بعض قواعد جديدة تعطى الأولوية لأبناء الشهداء فى كل المجالات والخدمات ليتحقق معنى القول بأن من يستشهد من أجل الوطن، فإن الوطن لابد أن يكون كفيل أبنائه وعائلهم بأكثر مما لو كان الشهيد حيًا يرعاهم بنفسه.

وفى العراق أقاموا «للشهداء» نصبًا يفوق فى ضخامته الخيال وتحته متحف كبير يجسم البطولات ويروى الوقائع وسير الأبطال، وعلى جدرانه عشرات الآلاف من اللوحات من الذهب الخالص الذى تبرعت به نساء العراق، وسيكتبون على كل لوحة اسم شهيد دون أن يغفلوا اسمًا واحدًا. الفكرة هى أن يقوم هذا الصرح الشامخ رمزًا تلتف حوله قلوب المواطنين ليشعروا يومًا بعد يوم، وسنة بعد أخرى كيف ضحى كل هؤلاء لنعيش نحن حياتنا آمنين.

وقد لا يكون ضروريًا أن نجعل لوحات شهدائنا من - الذهب الخالص، وإن كان ذلك ليس كثيرًا عليهم، ولكن لابد من بناء لائق تسجل فيه أسماء «الاكرم منا جميعًا» لتظل حية فى الذاكرة القومية، وهم بالقطع - أحياء عند ربهم يرزقون، فى مرتبة لا يدانيها إلا الأنبياء..

إن نصر أكتوبر لم يأت من فراغ.. ولم يكن هبة مجانية.. لقد دفعنا الثمن.. وكان ثمنًا غاليًا.. غاليًا جدًا.. فكل بيت فى مصر فيه شهيد منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣ ولذلك نقول إن المبالغة فى تكريم الشهداء ليس فى حقيقته إلا مبالغة فى تكريم المصريين جميعا، وتأكيد بأن مصر وطن لا تضيع فيه التضحيات.

(٤)

فى مواجهة الأمية السياسية

٥ يونيو ٦٧ و٦ أكتوبر ١٩٧٣ يومان فى تاريخنا المعاصر لا يفصل بينهما إلا أقل من ست سنوات، كان لهما أعمق الأثر فى تشكيل الوجدان والضمير الشعبى المصرى والعربى، وفى تغيير صورة الحياة ومسار الأحداث فى المنطقة كلها، وإمتد تأثيرهما إلى الساحة الدولية. مع فارق عظيم بين اليومين. يوم الهزيمة، ويوم الانتصار.

ومع ذلك فقد استسلمت العقلية العربية - التى تميل بطبيعتها إلى الوقوف طويلا للبكاء على الماضى - بأكثر مما يجب ليوم الهزيمة - وتجاوبت بأقل كثيرا مما يجب مع حدث الانتصار وكأنه محكوم على العرب بلعنة أقرب إلى اللعنة التى طاردت سيزيف فى الأسطورة اليونانية الشهيرة فحكمت عليه بأن يحمل الصخرة على صدره ويصعد بها التل المرتفع، حتى إذا بلغ قمة التل وتقطعت أنفاسه تدحرجت الصخرة إلى السفح ليعود إلى رفعها من جديد دون توقف.. نفس اللعنة تقريبا تدفع بعضنا كلما حققنا انتصارا، أن يعودوا بنا إلى جراح الهزيمة لا يستطيعون تجاوزها ولا يقدرون على إدراك أو استثمار الانتصار والتجاوب مع المتغيرات الجديدة التى جاءت معه.

كان يوم ٦ أكتوبر انتصارا للعسكرية المصرية - هذا حق لا جدال فيه - دفعنا ثمنه من أرواح شهدائنا ودماء أبنائنا. وسيبقى سجل شهداء وضحايا هذه الحرب صفحة فخار لنا على مدى التاريخ.

وكل مرحلة من مراحل هذه المعركة لابد أن تملأنا بالشعور بالعزة. الدراسات التى أجريت قبل وضع الخطة.. التدريب.. القرار.. ضربة المدفعية.. ضربة الطيران.. العبور.. ستقف الأجيال القادمة طويلا أمام كل مرحلة منها بالتحية للرجال الأبطال الذين كانوا وراءها.. وستدرك أن مرحلة جديدة من تاريخ مصر بدأت بهذا اليوم. فإذا قيل إن مصر منذ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ بدأت مرحلة البحث عن طريق جديد لبناء المستقبل وإذا قيل إننا فى ثورة عرابى عام ١٨٨١ كنا نبدأ مرحلة إثبات الشخصية المصرية أمام الاحتلال الإنجليزى التى امتدت بزعامة مصطفى كامل وسعد زغلول إلى أن جاء ٢٣ يوليو بمفاهيم الحرية والعدالة الإجتماعية والقضاء على الإقطاع، وكانت ثورة اجتماعية بمعناها الواسع فإن ٦ أكتوبر نقطة تحول وانطلاق على المستوى الوطنى والقومى لا تقل عما سبقها من أحداث مصيرية فى تاريخنا.

يوم ٦ أكتوبر كان يوما لدفن الأحزان التى ولدتها هزيمة ٥ يونيو فى مقبرة الماضى.. ولحظة دق فيها القدر بقوة على أبواب المستقبل ليفتحه على حياة جديدة.. لكن مشكلتنا بعد ٦ أكتوبر هى تفشى الأمية السياسية وهذه الأمية السياسية هى التى تعوض البعض - حتى من بين المثقفين والسياسيين - عن إدراك الحجم الحقيقى لما حدث. وهى التى تملأ بالضباب عقولهم فتسىء الفهم والتفسير.. الأمية السياسية هى التى تدعو البعض إلى تصور أن ٦ أكتوبر لن يوصلنا إلى أكثر مما وصلنا إليه، وهذا خطأ فى الفهم، وفساد فى ملكة الحكم على الأحداث التاريخية المصيرية، لأن هذا اليوم مازال عطاؤه متجددا بشرط أن نفهمه ونستثمره ونعمل على منواله. والأمية السياسية تصور للبعض أن انتصار ٦ أكتوبر غير قابل للتكرار. وهذا خطأ أيضا لأن تكراره ممكن ليس فى ساحة الحرب فقط ولكن فى ساحات العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى كلما أعددنا

أنفسنا بمثل إعدادنا لهذا اليوم، بالتفكير العلمى والتخطيط الدقيق والحشد المنظم للقوى والإمكانات. وبحسن استخدام ما نملك من أسلحة، وبتوحيد الجبهة الداخلية والعربية وبتغليب مصلحة الوطن على المصالح الشخصية، وبالربط المحكم بين القوة المادية والقوة الروحية المستمدة من الإيمان فإن الانتصار سوف يكون النتيجة الحتمية لعملنا ولا بديل سواه.

الأمية السياسية هى التى تحاول أن تشدنا - بعد ما حققناه من انتصارات أكتوبر - إلى معارك فرعية وثانوية لنتقابل وتتبدد قوانا ونصبح شظايا تذرونا الرياح. والأمية السياسية هى التى تحاول أن تقلل من أهمية العلم الذى انتصرنا به لتعيد الخرافة إلى حياتنا فنحلم بالنتائج دون أن نتخذ لها الأسباب، ونضع لها المقدمات المنطقية المؤدية إليها، أو نطالب بالثمار دون أن نغرس البذور ونرويها بالعرق. والأمية السياسية هى التى تعيد إهداءنا قاموس الشتائم والسباب القديم ليطعن به بعضنا بعضا فى الظهور، ونعيد فى جوها معارك أفسدت حياتنا السياسية قبل الثورة ولسنوات طويلة بالدوران فى حلقة مفرغة من المعارك العقيمة لا نتقدم بها خطوة إلى الأمام ولا يستفيد منها الوطن وأهله فى معركة البناء والمستقبل.

ولو دققنا النظر لأدركنا أن أجزاء من وطننا العربى تسود فيها الأمية السياسية بأكثر مما تسود فيها أمية القراءة والكتابة وكم من الأميين يتفوقون بوعيهم السياسى على كثير من أصحاب الشهادات. ولعلنا نذكر أن محمد على مؤسس مصر الحديثة كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة ولكنه كان عبقريا فى إدارة معارك الحرب والسياسة، أما الأمثلة التى تثبت العكس فهى أمامنا وحولنا تفوق الحصر.. تعوق خطونا وتهدد مسيرتنا فى كل لحظة وكل مكان.

٦ أكتوبر يوم أعاد إلى العرب قدرتهم على التحدى لبناء حياتهم وفقا لمصالحهم.. النصر فيه لم يكن مصادفة ولكنه جاء وليد جهد وعرق أثبت

قدرتنا على التفكير الإستراتيجى والتخطيط الجيد، وتفهم المتغيرات على الساحة الإقليمية والدولية. والحرب فى ٦ أكتوبر لم تكن حربا من أجل الحرب لكنها كانت حربا من أجل العدل والكرامة.. ومازال فى هذا الميدان عمل كبير ومعارك طويلة.

٦ أكتوبر لا يكفى أن نخلده بالأناشيد. ولكن يجب أن نخلده بالعمل. ولابد أن يكون واضحا أمامنا حجم العمل المطلوب، وحجم التضحية اللازمة، ومن الذى يستفيد. وبقدر التضحيات التى قدمناها لإحراز النصر فى ذلك اليوم نحتاج إلى التضحيات كل يوم للحفاظ على هذا النصر ودفعه إلى الأمام.. إلى مجالات بناء الوطن، وتحقيق السلام وإقرار العدل بكل معناه وبكل أبعاده.

يدعونا هذا اليوم – بعمق تحولاته – إلى ضرورة إعداد برنامج قومى لمحو الأمية السياسية، ولتكن البداية فى سن التعليم على اختلاف مراحله، لكى يعرف الشباب تاريخ وطنه، وموقع انتصارات أكتوبر فى السياق العام لهذا التاريخ، بموضوعية، وبعيدا عن محاولات الزيف والتضليل التى نذر البعض نفسه لها، وبعيدا عن أصحاب الأصوات العالية الذين جعلوا رسالتهم تضليل الشباب وتشويه التاريخ والأبطال، وندرك أن مناهج التعليم الحالية وأسلوب تدريس التاريخ وما يسمونه «التربية القومية» والعلوم السياسية لا يحقق شيئا من ذلك، وندرك أيضا أن أجهزة رعاية الشباب الرسمية تجرى وراء انتصارات فى ساحات كرة القدم بأكثر مما تسعى إلى البناء الحقيقى لعقل وروح وشخصية الشباب. ومن هنا فإن نداء ٦ أكتوبر لنا هو البدء بإعادة بناء مؤسسات التربية والرعاية والتوجيه، وفقا لفلسفة جديدة وفكر جديد، ولتكن هذه هى الخطوة الأولى لاستعادة روح أكتوبر التى نبحث عنها فى كل عام مرة.

(٥)

أسلوب إدارة الأزمات : نموذج طابا

فى مراحل سابقة - ولسنوات طويلة - اعتدنا أن تكون إدارة الأزمات بالميكروفونات ، والخطب الرنانة ، والأغانى الحماسية ، حتى جاء وقت كانت فيه الإذاعة والتليفزيون هى كل أسلحتنا ، وجاء وقت كان فيه المطربون ومؤلفو الأغانى وملحنوها هم أبطال الجهاد الوطنى !

لكن أسلوب العمل فى إدارة الأزمات اختلف بعد أن أصبح المنهج السائد للعمل هو ذات المنهج الذى اتبع فى الإعداد والتخطيط والقيادة لحرب أكتوبر .. منذ أصبحت قيادة العمل الوطنى هى قيادة أكتوبر اختلفت فلسفة العمل ، وطريقة التناول ، وانتقلنا من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل .. والدليل على ذلك ما حدث فى قضية طابا .. وفيها من الزوايا ما يستحق التأمل الطويل .

كان الأسلوب المصرى المألوف فى المراحل السابقة هو اخفاء المشكلة عن الشعب أو (التهوين) من شأنها . وإظهارها بحجم أقل كثيرا من حجمها الحقيقى - مهما تكن خطورتها على مستقبل البلد - وإظهار كل من يتناول حقائقها الخافية عن العيون على أنه خائن وعميل، أو - على أقل تقدير - حاقد ومتهور ومن ذيول الماضى الأسود ومن أعداء الشعب ! .. ثم إطلاق قنابل الدخان الكثيفة بالخطب والتصريحات لفرض حالة من الشعور العام بأننا قادرون على قهر العالم كله وفرض إرادتنا على قواه الكبرى ، فترى بين الجماهير حالة أشبه بالتنويم المغناطيسى لا تفيق منها إلا فى اللحظة

التى ينهار فيها جبل الأوهام ، وهذا هو تفسير ما انتاب الشباب من شعور بالإحباط الشديد بعد أن عاش أباؤهم مرحلة الزهو الزائف .

واعتادت الجماهير أن يقال لهم أنصاف الحقائق ، وفى كل أزمة كان المبرر السائد لإخفاء الحقيقة هو أن هناك ما يمكن أن يقال للناس وهناك ما لايحق للناس أن يعرفوه . وهذا هو السر فى حالة الترقب التى كانت تسود فى كل أزمة انتظارا لما سوف يتكشف مع الزمن من جبل الجليد الذى كان يخفى دائما أكثر بكثير مما يظهر منه . ويكمن الخطر دائما فيما يخفيه .

أمام قضية (طابا) كان أسلوب إدارة الأزمة مختلفا . فمنذ اللحظة الأولى كان واضحا أمام العالم كله أن القيادة متمالكة لأعصابها ، مقدرة للأزمة بحجمها الحقيقى ، مدركة أن طريق الانفعالات والمشاعر والحماس ليس هو الطريق الصحيح لتحقيق الهدف . والأغانى الملتهبة لا تعيد حقا مسلوبا .. وما أكثر الأغانى التى قيلت فى مراحل سابقة حتى أصبحنا أكثر دول العالم غناء فى حب بلدنا وانتصاراتها - وبلا منافس - حى ولو كانت فوزا فى مباراة لكرة القدم .. !

لم تحاول القيادة للحظة أن تهون من حجم الأزمة ، بل كانت هى المبادرة بطرح كل الحقائق وتطوراتها كاملة على الرأى العام ، وكان المبدأ الجديد الذى التزمت به - رغم خطورة وحساسية القضية أن كل شىء يجب أن يعرفه الناس فى وقته دون تسويف ودون استهانة بعقلية الجماهير لأن قضايا الوطن الكبرى لا يجوز أن تكون حكرا لفرد أو حزب أو جماعة بأى حال من الأحوال .

مع بدايات الأزمة أيضا حرصت القيادة على أن يكون هناك توحد بين القول والفعل ، أعلنت - وتعلن - أننا نحترم الشرعية الدولية . وقواعد القانون الدولى ، وتحرص على السلام ولم يكن سلوكها إلا إلتزاما بهذه

المبادئ وما فعلناه سيكون مثالاً تاريخيًا سوف تفيض كتب القانون الدولى فى تحليله وتقديمه كنموذج لكيفية حل المنازعات الإقليمية وفقًا لقواعد الشرعية والعدالة ، ولن يكون فى الأمر مغالاة إذا قلنا ((إن قضية التحكيم فى طابا سوف تفتح صفحة جديدة فى العلاقات الدولية وسوف تعيد الأمل فى المستقبل .

لم يكن سهلاً أمام القيادة سواء خارجيا أو داخليا . كانت هناك منابر إعلامية تردد ادعاءات تشكك فى سلامة الموقف المصرى ، وطبيعى أن يكون لنا فى الساحة الدولية خصوم ، كما أن لنا أصدقاء وكانت هناك عواصم عربية -- ليست كثيرة والحمد لله - تحاول استغلال قضية طابا للإساءة إلى الشعب المصرى وإلى قيادته ، وفى الداخل تصورت بعض أحزاب المعارضة أن هذه الأزمة يمكن أن تكون ورقة ضغط قد يساعد اللعب بها - مع أوراق التموين والأسعار وغيرها - فى إظهارها بمظهر المعارض القوى ، وأريق حبر كثير فى مقالات اشتد أصحابها فى النقد واشتط بهم الخيال ، لكن القيادة التى حددت الهدف ، وحددت طريق الوصول إليه ، لم تصادر حرية الآخرين فى القول ولم تتهم أحدا فى وطنيته لكنها مضت فى طريقها على أساس أن العبرة دائما بالنتائج . ولعل ما جرى فرصة لتراجع بعض أحزاب المعارضة أسلوبها فى ممارسة حقها . فقد ترى أن المصلحة العليا تقتضى فى المواقف الحرجة وأمام القضايا المصيرية وفى المعارك الاستراتيجية - أن تترك للقيادة حرية التصرف وتمارس هى حقها فى الرقابة اللاحقة ، أى فى حساب من تريد بعد أن تدع لمن فى موقع المسئولية حرية ممارسة مسئوليته دون ضغط عليه ، بل إن واجبها أن توفر له الجو الذى يجعله متفرغا للمعركة الخارجية دون دفعه إلى تبديد طاقته بالتلفت والانشغال بمعارك داخلية لا جدوى منها ، وتسانده أثناء مباحثاته ، ثم تحاسبه بعد ذلك كما تشاء .

أبرز ما فى ملحمة طابا أنها أسقطت نهائيا نظرية (أهل الثقة) وأحلت محلها نظرية (أهل الخبرة) على أساس أن كل أبناء مصر هم أهل ثقة ، وليس من حق أحد – أو مجموعة – أن يدعى احتكار الحرص على مصلحة البلد ، فهو بلد الجميع ، ومصيره هو مصير الجميع ، ولذلك كان فى الصف الأول الدكتور وحيد رأفت – وهو عالم وفقيه فى القانون الدولى له مكانته – قبل أن يكون واحدا من قادة حزب معارض، واختير فى هيئة الدفاع مجموعة من أكفأ الخبراء والأساتذة بصرف النظر عن اتجاهاتهم السياسية أو انتماءاتهم الحزبية .. فى الحقيقة كانت مصر كلها فى هيئة الدفاع ولذلك فإن مصر كلها هى التى كلل جهدها بالتوفيق .

فوق ذلك أظهرت قضية طابا أننا حقيقة دولة مؤسسات . فقد قامت وزارة الخارجية بدورها كاملا فى قيادة الجانب الدبلوماسى واستعانت بكل الخبرات – من داخلها وخارجها – فى الجانب القانونى والتزمت حدود اختصاصاتها دون تزيد أو انتقاص ،ويكفى أن المعركة أدارتها وزارة الخارجية ، وليست وزارة الإعلام .

حتى بعد صدور الحكم جاءت ظاهرة جديدة هى ضبط إيقاع الشعور بالفرحة بحيث لم تصل إلى درجة الهوس أو الانفعال الهيستيرى التى اعتدنا أن نراها فى مراحل سابقة . لكنها جاءت فرحة عاقلة تتلفت بالشكر لكل من أدى واجبه الوطنى ، وتنشغل بالمستقبل وبالخطوات التالية .

نموذج طابا هو النموذج الأمثل فى إدارة الأزمات . والمنهج الذى اتبع فى تناول هذه القضية من بدايتها هو المنهج الكفيل بحل مشاكلنا الكبرى . والترجمة العملية للقول بأن روح أكتوبر – حقا وصدقا – أصبحت سارية فى الكيان المصرى وفى العقل المصرى ، وأن مرور السنين سوف يجعل هذه

الروح ترسخ أكثر وتستقر فى أعماق الوجدان لتحكم سلوك كل فرد كما تحكم سلوك الدولة ومؤسساتها ، بالفعل وليس بالانفعال بعبقرية العمل الجماعى وليس بعبقرية الفرد ، بالعلم والدراسة والمنطق والحجة ، وليس بالإعلام الفج والخطب الملتهبة والكلمات الرنانة والصوت العالى ، بأهل الخبرة وأصحاب المقدرة أولاً وأخيرًا .

بهذه الروح – وليس بغيرها . نستطيع (العبور) فى كل معركة ، ونحطم تحصينات كثيرة ليست أقل من تحصينات خط بارليف .

٦

دروس للمستقبل

بالرغم من أن عشرين عاما قد انقضت على يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ إلا أن هذا اليوم ما زال حيا فى الضمير القومى العام بدلالاته ومعانيه ، وكلما مرت السنون يتأكد عبث المحاولات المستميتة التى تبذل من أكثر من جهة لإجهاض قيمة هذا اليوم . أو لسلب الزهو القومى الذى يملأ الوجدان العربى به ، ويتأكد أيضا كذب الإدعاء بأنه كان مجرد قفزة فى السياق التاريخى ، واستثناء لا يقاس عليه .. فالعكس هو الصحيح .. فإن يوم ٦ أكتوبر هو اللحظة التاريخية الفذة التى كشفت الغطاء فظهر الجوهر ، وتكشفت حقيقة مصر والمصريين .

ومع بداية العام العشرين لا نحتاج كثيرا للحديث عما تحقق فى هذا اليوم العظيم ، فهو قائم ومائل بكل تفاصيله ، ولكننا نحتاج إلى بداية جديدة تمثل الخطوة الثانية لما بعد ٦ أكتوبر وعلى طريقه . فهذا اليوم بكل ما فيه من إعجاز يفوق حسابات البشر ، لم يكن لحظة عارضة وطارئة فى مسار التاريخ المصرى . ولكنه يوم يمثل القوة الحقيقية للشعب المصرى لمن يريد أن يعرف ويقيس هذه القوة ، وهو بالتأكيد قابل للتكرار فى كل الميادين ، حربًا وسلمًا .

ففى ذات اللحظة التى ذاق فيها الشعب المصرى مرارة هزيمة ٥ يونيو بدأت فى داخله لحظة الاستعداد ليوم ٦ أكتوبر ، وجاء هذا اليوم بالعبور العظيم وتحدى المخاطر وعدم الخضوع لحسابات القوة المادية وحدها ليظل رسالة موجهة إلى كل من يظن أن مصر يمكن أن تستسلم أو ترضى

بالهزيمة ، وليعرف من لا يعرف أن الهزيمة بالنسبة للمصريين ليست إلا دعوة لاستنفار قواهم لقتال جديد ، ومقدمة لنصر لابد أن يحققوه مهما طال المدى . وليس أمامهم بديل آخر يمكن أن يتقبلوه ، وهذا هو مسار تاريخهم منذ آلاف السنين لن يريد أن يعرف مصر والمصريين .

كل عام يمر على هذه الحرب نحتاج إلى تأكيد عاملين أساسيين من عوامل النصر الذى تحقق لنا فيها نقيم عليهما معركتنا فى الصراع مع التخلف والأزمات القادمة .

العامل الأول : هو أن نعتبر المرحلة القادمة هى مرحلة إعادة بناء الإنسان ، حقيقة أننا رفعنا هذا الشعار منذ سنوات طويلة ، ولكننا لم ننفذه ، ولم نحقق فيه شيئا ذا بال ، ولا يزال المبدأ مطلوبا ، فلقد أثبتت حرب أكتوبر أن الإنسان المصرى هو المعجزة الحقيقية ، والثروة الكامنة التى تفوق كل الثروات الأخرى . فالعبقرية العسكرية المصرية التى ظهرت كان يمثلها قادة من أعماق المجتمع المصرى ، ليسوا من أبناء طبقة توارثت القيادة والسلطة . ولكنهم من أبناء الشعب ، خرجوا من ضمير الوطن ، من أسر عادية ، فى كل مكان من قرى ومدن مصر وفى كل بيت من بيوت الأسر المصرية البسيطة . وقد أداروا معركة إلكترونية معقدة واستخدموا أحدث علوم العصر ، وأثبتوا عبقريتهم فى تخطيط وإدارة المعارك ، وكان التنفيذ أيضا شاهدا على مقدرة المصريين على استيعاب الأسلحة الحديثة والتعامل معها بكفاءة كاملة ، وأثبتت القوات المسلحة أنها أدت أصعب الأعمال بمقدرة وإخلاص . وأثبتوا أن الإنسان المصرى حين يخرج من قوقعته يظهر معدنه . ويصبح أقوى سلاح ، لا يقل أثره فى الحرب عن القنبلة الذرية .

كل هذا يؤدى بنا إلى أننا - مع العام العشرين - فى حاجة إلى جيل من (الأكتوبريين) فى كل المواقع ، بعد أن تأكد أن الشعب الذى فرضت عليه

الهزيمة فى يونيو هو ذاته الذى حقق انتصار أكتوبر، لم يتغير فيه إلا القيادة . ونوعية التفكير والتخطيط . ولذلك فإن الباحثين عن روح أكتوبر لهم أن يطمئنوا إلى أنها قائمة وباقية ومستمرة ولا يمكن أن تموت . وإن كانت فى بعض الأحيان تدخل مرحلة (الكمون) ، فسرعان ما تظهر من جديد ، وأمامنا الانتفاضة الفلسطينية فهى لحظة ظهرت فيها روح أكتوبر الكامنة . وفى المجال الداخلى فإن ما تحقق من إنجازات فى مجالات الإنتاج والخدمات-وهو ليس قليلا- ما كان يمكن أن يتم إلا بفضل ما بقى من روح أكتوبر ، وإذا كان فى بعض المواقع من يقود ويعمل بروح يونيو فسوف تقتلعه روح أكتوبر حتما ، لأنها هى الجوهر الدائم وما عداها أعراض تظهر فى ظروف ولأسباب وقتية وتتبدد . وفى حسابات القوة لابد أن نضع فى تقديرنا القوة الكامنة فى الشعب المصرى ، وهى قوة تحتاج إلى محرك بالفكر والتخطيط مثلما فعل القادة الذين وضعوا هذه القوة فى حساباتهم فى حرب أكتوبر وحققت ما يعتبره الآخرون معجزة .

وهذا يقودنا إلى حقيقة هامة هى أن استمرار روح أكتوبر يتوقف على مدى اهتمامنا بالإنسان ، ومما يقودنا مرة أخرى إلى عناصر بناء البشر وأولها : التعليم .. والديمقراطية ، ولو جعلناهما على رأس الأولويات فى المرحلة القادمة وضاعفنا من خطواتنا فى العمل فيهما فسوف يقودنا ذلك إلى إعداد أجيال متلاحقة من (الأكتوبريين) صناع النصر فى كل ميدان .

والعامل الثانى لنصر أكتوبر كان نجاح قادتها فى إدارة (حرب الأسلحة المشتركة) وتأكد به أنه ليس هناك سلاح واحد يمكن أن يعمل ، أو يحقق النصر ، وحده ، ولكن لابد من التكامل والتنسيق ، والعمل بين مختلف الفروع بروح الفريق . وكان هذا التعاون بين الأسلحة شيئا جديدا فى العمل العسكرى المصرى ، ومنه يمكن أن نستخلص أن تحقيق التنمية - كمعركة - وإصلاح التعليم - كمعركة - والإصلاح الاقتصادى - كمعركة -

ومواجهة الإرهاب .. الخ كل هذه الميادين والقضايا يمكن أن نعالجها بالروح الفردية التى تجعل إصلاح التعليم مسئولية وزارة التعليم والإصلاح الاقتصادى مسئولية وزارة الاقتصاد ، ومواجهة الإرهاب مسئولية وزارة الداخلية ، وأن نعالجها بروح أكتوبر بأسلوب «حرب الأسلحة المشتركة» بأن تكون كل الوزارات والهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية مشتركة فى التفكير والتخطيط والتنفيذ والمسئولية بتنسيق . ووضوح فى الهدف وتحديد لمسئوليات كل فرد وكل جهة .. إن منهج (حرب الأسلحة المشتركة) هو وحده الذى يمكن أن يجعلنا نحقق فى كل مجال ما حققناه فى حرب أكتوبر ، ومنهج (الأسلحة المتفرقة) والجزر المنعزلة لن تكون نتائجه إلا ما حققته فى يونيو .

إن يوم ٦ أكتوبر هو يوم العسكرية المصرية .. صفحة ناصعة فى سجل انتصاراتها عبر الزمن .. وهو يوم الشعب المصرى الذى انتفض ورفع رأسه .. وستظل رأسه مرفوعة .. وسيظل يخوض معاركه بروح أكتوبر : العلم ، والتخطيط ، والقيادة ، والاستعداد للتضحية ، ودفع ثمن النصر ، لأن النصر الرخيص ليس إلا هزيمة باهظة التكاليف ، والنصر المجانى ليس إلا هزيمة مقنعة .. وإذا كان عدونا هذه المرة هو الإثراء غير المشروع ، والانتهازية ، والنفاق السياسى والاجتماعى ، والغوغائية الفكرية بمعاركها الفرعية التى تهدف إلى استنفاد طاقة شعبنا . فإن الشعوب الحية تعيش حروبا دائمة . ولا تفرغ من معركة إلا لتتهيأ لمعركة أخرى ، وما تكاد تحرز نصرا حتى تصمم على تحقيق نصر بعده ، وإذا كانت معاركنا صعبة ، وأعداؤنا – فى الداخل والخارج – مراوغون ، فإن النصر فيها لا بديل عنه .

(٧)

طموحات .. ورجال

تأتى ذكرى ٦ أكتوبر هذا العام ذات طبيعة خاصة تختلف عما سبقها، فهذا هو احتفالنا العشرون، وعند هذا الرقم لابد أن نتوقف ونفكر: ماذا فعلنا بهذا النصر التاريخى الكبير؟، وماذا بقى علينا أن نحققه..؟

إن نظرتنا الآن إلى حدث كبير مثل حرب أكتوبر لابد وأن تتأثر بالظروف الجديدة التى استجدت فى العالم وجعلت منه عالما مختلفا عما كان عليه فى عام ١٩٧٣.. فقد أصبحنا فى عالم يتغير بسرعة مذهلة تجعل ممكنا الآن ما كان مستحيلا منذ أيام ومتحققا فى مثل لمح البصر، ونرى خرائط جديدة تظهر فيها دول، وتختفى دول، وتقسم دول، وتضيع شعوب ضحايا لمرحلة التحول والغليان.. والعالم كله مشغول بإعادة الحسابات وإعادة ترتيب الأولويات.. كل ذلك يعنى أن القرن الحادى والعشرين حين يأتى سوف يكون هناك عالم جديد، مختلف عن العالم الذى عرفناه منذ الحرب العالمية الثانية، وإذا لم نحسن إعداد أنفسنا لنحدد مكاننا فى هذا العالم بأنفسنا، فسوف نجد مصيرنا فى أيدى الآخرين ونكون مهددين بألا يكون لنا فى العالم الجديد مكان.

ما تحقق فى مصر حتى الآن ليس بالشىء القليل، لكن ما تبقى من الطريق هو الجزء الأهم والأخطر، ولذلك اقتضت مصلحة مصر أن تبقى قيادتها العليا لفترة ثالثة لضرورة تمليها الظروف الدقيقة التى تستلزم استمرار واستقرار السياسة العليا، وبقاء الاستراتيجية القومية دون إهتزاز، ليس فقط من أجل استكمال الإصلاح الاقتصادي حتى ينتهى

طريقها الصعب وتبدأ مرحلة التنمية والازدهار الاقتصادي، فهذا جانب واحد من الموضوع، ولكن من أجل شيء أكبر وأعم، هو بدء عملية تجديد شاملة آن أوانها.. عملية بناء وطن بالكامل لكي يناسب القرن الحادى والعشرين.. ومن الطبيعي أن يكون الإصلاح الاقتصادى ثم التنمية هما البداية.. وليسا هدفا نهائيا.

إن الإصلاحات الاقتصادية التى تمت أخرجت مصر من أزمة كانت وطأتها شديدة وكانت ستزداد شدة، ولم يكن ممكنا الخروج منها إلا بتضحيات أثقل واكبر مما قدمنا، وأعباء لفترة أطول مما استغرقتها، ومع أن الرئيس مبارك وصف آثار الإصلاح الاقتصادى مرة بأنها «الدواء المر» ومرة أخرى بأنها «شر لابد منه»، فكيف كان يمكن أن يكون الوصف المناسب للآثار إذا تأجل هذا الإصلاح؟..

لقد تعلمنا من حرب أكتوبر أن تحقيق الانتصار مستحيل إلا بمعركة، وبتضحيات غالية، وبتخطيط جيد، وبرجال قادرين، مخلصين، لديهم العلم والعزيمة، وبسلوك وقيم إيجابية حافزة للعمل ومحركة للهمم، وبشعور جماعى بأن المعركة معركة الجميع وأن النصر والهزيمة ليسا لجانب من الشعب دون آخر، ولكنهما للشعب كله دون استثناء.. وهذه بذاتها هى المفاتيح الضرورية لبدء مرحلة تأتى تلبية للإرادة الشعبية فى إعادة بناء المجتمع المصرى على أسس جديدة تساير مبادئ العالم الجديد.

ويقتضى ذلك ظهور مفهوم جديد للقيادة بمستوياتها المتعددة سواء فى الأحزاب السياسية.. أو الهيئات التشريعية، أو فى أجهزة الدولة وإدارة الاقتصاد. مفهوم يقوم على أن القيادة «مسئولية» تخضع للحساب والرقابة والقانون، وليس هناك من يظل مؤبدا فى موقعه، لأن تجديد القيادات، يعنى تجديد الأفكار ومناهج العمل وطرق المعالجة للمشاكل، ويعنى أيضا عدم إيجاد فرصة لنشوء مراكز قوة فى أى مستوى، كما يعنى عدم وجود

قيادات لفترات طويلة جدا تسمح لهم بإخفاء الحقائق وإعادة تصويرها وتقديمها بشكل زائف لا يتكشف إلا بعد رحيلهم.. مفهوم القيادة الجديد أن تعمل لصالح الناس أولا وأخيرا وليس لصالحها.. ولا لصالح الدائرة القريبة منها، هذا المفهوم إذا تحقق فسوف يكون ممكنا أن تظهر روح جديدة بين الناس تجعلهم يتقبلون التضحية والعمل..

إن اختفاء الشيوعية، وفشل الماركسية، لن يترتب عليهما اختفاء دور «الأيديولوجيا»، ولكن الأيديولوجيا ستبقى على أنها النظرية الدافعة للعمل، والمحركة للسلوك، سوف تبقى كحاجة إنسانية لا يستغنى عنها البشر، ولا يخلو منها مجتمع منتج، وهناك «أيديولوجيا» فى اليابان، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية.. وحيث يوجد مجتمع للعمل والإنتاج هناك منظومة أفكار ومبادئ وقيم تدفع الناس للتضحية والبذل والعرق وإعتبار العمل عبادة.. وتحدد أهداف ووسائل بناء المجتمع وفلسفته ونوعية العلاقات السائدة بين أفراده، وهذه الأفكار والمبادئ والقيم هى «الأيديولوجيا» وإن كان اللفظ قد ارتبط بالماركسية فى بعض الأذهان فعليهم أن يعيدوا فهمه فى ضوء الفكر العالمى الجديد.

هذه «الأيديولوجيا» التى نحتاجها فيها إيمان بالدين كقوة دافعة للعمل، واثقة بالعلم، بمنجزاته، ساعية إلى المستقبل الذى يبقى من الماضى على الثوابت الإلهية ويسمح بالتغير والتطور لكل ما هو اجتهاد إنسانى من صنع البشر.. هذه «الأيديولوجيا» لابد أن تتضمن أيضا رؤية جديدة لدور مصر ورسالتها بين شقيقاتها وفى محيطها الجغرافى، ولابد أن تسمح بتفاعل حر بين الآراء والاجتهادات المختلفة من أجل استمرار التجديد والحيوية للمجتمع.

فى هذه «الأيديولوجيا» نحتاج إلى تحديد وتفصيل لكيفية رعاية الدولة للفقراء وفقا لبرنامج متكامل لضمان الحد الأدنى من حقوقهم فى لقمة العيش، والتعليم والعلاج.. ففى الولايات المتحدة هناك «أيديولوجيا» لبناء

المجتمع الأمريكى واضحة ومحددة فى ذهن القادة كما فى ذهن كل أمريكى بسيط فى حى من الأحياء النائية الفقيرة، تكفل له حقوقا تمثل الحد الأدنى من حقوق الإنسان إبتداء من التامين ضد البطالة، إلى التعليم المجانى، إلى المعاش، والعلاج.. إلخ. ويكفى أن نعرف أن الموازنة الأمريكية لهذا العام قد خصصت ١٩ مليار دولار لهذه الرعاية التى تقدمها الدولة للفقراء لندرك أن دور الدولة لم ينته.

وفى هذه «الأيديولوجيا» لابد أن نحدد ونفصل ونجيب عن أسئلة بالغة الأهمية مثل: ما هو دور الإعلام وما دور الثقافة.. وما هو الهدف المحدد أمام التعليم فى مصر.. إعداد موظفين..؛ إعداد قوى عاملة تقابل إحتياجات المجتمع..؟ تعليم لمجرد التعليم واعطاء شهادات..؟ تعليم للإستهلاك المحلى أم التصدير..؟ بمعنى أن يكون الخريج صالحا للحياة والعمل والتعامل مع مجتمعات أخرى، وما هى هذه المجتمعات..؟ أم أن يكون عاجزا عن العمل والتعامل إذا أصبح خارج الحدود؟.. وتحدد الأيديولوجيا أيضا الفلسفة الاقتصادية التى نتبعها.. هل ستكون الليبرالية عندنا مثل الولايات المتحدة، أم مثل بريطانيا، أم فرنسا، أم الدول الإسكندنافية وكلها ليبرالية، وكلها فيها قطاع عام وقطاع خاص وتتحمل الدولة مسئولية تنفيذ برنامج لحماية الفقراء وتقديم الخدمات المجانية الأساسية لهم. وبينها خلافات، أى أنه ليست هناك تطبيقات ليبرالية واحدة.

وهذه «الأيديولوجيا» الجديدة لكى تتبلور وتتحدد معالمها وخصوصيتها لابد أن تدخل فى حوار مع الأيديولوجيات الأخرى التى تبناها المثقفون المصريون فى مراحل سابقة وأصبحت الآن من مخلفات الحرب الباردة ومن بقايا المراهقة الفكرية والسياسية التى يكابرون فينكرون أنهم مروا بها لكنهم عندما يصلون إلى مرحلة النضج العقلى والعقائدى يعرفون كم من

الحماقات الفكرية ارتكبوها، وكم من الشطحات والتجاوزات قاموا بها بحثا عن إنتصارات وهمية وتحت تأثير أوهام بطولات زائفة ساقهم إليها إندفاع المراهقة وطبيعتها المتهورة.

هذه «الأيديولوجيا» الجديدة التى نحتاجها بوصلة لحركتنا القادمة أهم عناصرها تحديد لكيفية تغيير الثقافة العامة للشعب المصرى، بما فيها القيم الاتكالية، والسلبية، والاستهتار فى السلوك الذى يتمثل فى الاستهتار بكل قاعدة.. ابتداء من إشارة المرور.. وانتهاء بالقانون والدستور.. والاهتمام بالقشور والمظاهر ذات الطابع الدينى على حساب جوهر العقيدة كما يروجها الذين يريدون نشر الفوضى وإعادة المجتمع إلى الوراء، ويسعون إلى إرغامنا على التسليم لأصحاب الشعارات المبهمة الذين يرددون كلاما عاما غامضا دون برنامج مقنع ومفيد لمصر فى مواجهة احتمالات المستقبل وتعقيداته.

ولذلك نقول إن الفترة القادمة لابد أن تكون فترة عمل غير عادى، يبدأ بإعادة دلالات انتصارات أكتوبر إلى الضمير والسلوك، والإعداد الجيد لدخول القرن القادم.. وسوف تحاسبنا الأجيال القادمة.

(٨)

رموز خط بارليف

بعد مرور عشرين عاما كاملة على حرب أكتوبر ١٩٧٣ لابد أن تبدو حقائقها بشكل مختلف، بعد أن علمنا بعض أسرارها، وتحدث عنها بعض قادتها، وأثمرت بعض نتائجها فى استعادة العرب لثقتهم بأنفسهم، وعادت قواتنا المسلحة إلى مكانها التاريخى اللائق بها.. الآن تبدو الأمور بأحجامها الحقيقية.. ويظهر الحجم الحقيقى للرجال الذين شاركوا فى هذه الحرب التى تعتبر بحق ملحمة شعب بأكمله.. هؤلاء الرجال أصبح من حقهم أن يحتلوا مكانهم الطبيعى بما قدموه للوطن، باعتبارهم: «الذين أعادوا الكرامة ورفعوا الرؤوس العربية».. ولن تنحنى بعدها أبدا..

الآن نرى خط بارليف الذى كان الفصل الأول فى الملحمة يتجاوز بكثير حقيقة كونه مجرد سلسلة من التحصينات القوية أنشئت فى سنوات وبجهود خرافية وأموال طائلة لتكون عائقا يجعل اقتحام قواتنا المسلحة فى وضع مستحيل».. حتى قال خبراء عسكريون عالميون إنه يحتاج إلى قنبلة ذرية لتدميره، لأنه أقوى عشرات المرات من خط «ماجينو» الذى دخل تاريخ الحرب العالمية الثانية.. يبدو الآن خط بارليف رمزا بالغ الدلالة، شديد الأهمية، ولو كان الأمر بيدى لفرضت على كل مصرى ومصرية أن يدرس ويفهم تفاصيل إنشاء هذا الخط الحصين فى مقررات الدراسة، ويكون سؤالا إجباريا متكررا فى كل إمتحان ليظل ماثلا وعميقا فى عقل ووعى كل مواطن فى كل مرحلة من مراحل عمره، إلى أن يدرك أن هذه هى مصر.. من الممكن أن تنهزم فى لحظة من لحظات التاريخ لأسباب

مختلفة ونتيجة أخطاء ارتكبت.. ولكنها أبدا لا تقبل ولا تتمايش مع الهزيمة، ولا تستسلم.. لابد.. لابد أن تقوم وتقف على قدميها وترفع رأسها وتواصل مسيرتها.. ومن الممكن أن تقف أمامها حواجز، وسدود، وتحصينات، وقد يؤثر ذلك فيها لحظة من الزمن، لكنها سرعان ما تستعين بإرادتها التاريخية، وبرصيدها الحضارى، وبعقول أبنائها، وبروح الفداء فيهم: فيقدمون الفكر والدم، ويتغلبون فى النهاية على العقبات.. ومن الممكن أن تقف مصر أمام ما يمكن اعتباره «المستحيل».. لكن عبقرية الوطن والإنسان فيها تغلب المستحيل.. وهذا ما حدث على امتداد التاريخ فى كل عصوره..

هذا الرمز بالغ الأهمية، ليس للحديث عن حرب أكتوبر فقط ولا عن خط بارليف.. ولكن للحديث عن الحاضر الماثل اليوم، وعن المستقبل الذى تلوح بعض ملامحه وسوف تتضح غدا.. من الممكن أن تظهر أمام الشعب المصرى عقبات وسدود وموانع مثل خط بارليف.. ليس فى الميدان العسكرى، ولكن فى الميدان الاقتصادي، أو السياسى، أو الاجتماعي.. ولكن فى النهاية سوف يكون مصير كل منها نفس مصير هذا الركام من الحجارة والأسمنت المسلح، الذى كان يوما تحصينات معجزة، ومنشآت هندسية ضخمة، يقول الخبراء فى وصفها إنها كانت مزودة بكل وسائل القتال والإقامة، امتدت على طول المواجهة من القناة والتى تبلغ ١١٠ كيلومترات، مجهزة بمرابض للدبابات بلغت ٣٠٠ دبابة، وكل منشأة من منشآتها التى بلغت ٢٢ حصنا، أكثر من طابق تبدأ من باطن الأرض حتى تعلو قمة الساتر الترابى، وحصنت مبانيها بالأسمنت المسلح، والكتل الخرسانية، وقضبان السكك الحديدية، والرمال، بحيث توفر وقاية كاملة ضد الإصابة المباشرة لجميع أنواع قذائف المدفعية، وقنابل الطائرات التى تزيد على ألف رطل، وجهزت معظم هذه النقاط الحصينة بخزانات للوقود والمواد الملتهبة، يصل الوقود منها خلال أنابيب خاصة إلى سطح المياه،

وبإشعالها تتحول القناة إلى مسطح هائل من اللهب، ثبت بالتجربة أن حرارته بلغت ٧٠٠ درجة مئوية، وزودت كل نقطة حصينة بمزاد ومخزون يحقق إكتفاء ذاتيا لمدة ١٥ يوما، وإكتفاء ذاتيا قتاليا يمكنها من صد كتيبة مشاة لمدة أسبوع.. وليس هذا هو كل خط بارليف.. ولكنه يمثل الخط الأول فقط وبعده سلسلة من الخطوط والسواتر الأخرى فى العمق كمرابض للدبابات، وقواعد لشن الهجمات المضادة فى اتجاه القناة..

وبعد كل ذلك كان هناك خط التحصينات الثانى على مسافة من ٥ إلى ٨ كيلومترات يضم ١١ موقعا حصينا، ومركز قيادة للقطاعات تحت الأرض محصنة تحصينا كاملا، وقواعد صواريخ مضادة للدبابات، ومرابض نيران مدفعية ذاتية الحركة.. وإحتياطات مدرعة ومشاة ميكانيكية، ووحدات مدفعية، ودفاع جوى، وكلها مدربة تدريبا عاليا، فهو - كما يقول المشير محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات فى حرب أكتوبر -: الخط المحصن الذى أجمعت آراء الخبراء والعلماء العسكريين على أنه خط دفاعى كامل التحصين، جعلت منه قناة السويس حالة فريدة فى التاريخ العسكرى، ويذكرنا المشير الجمسى فى مذكراته، وهو الرجل الذى دخل التاريخ العسكرى المصرى من أوسع أبوابه لدوره فى هذه الحرب بما سجله المؤرخ العسكرى الأمريكى ت. ديبوى عن عملية اقتحام هذا الخط بقوله: «إن كفاءة الاحتراف فى التخطيط والأداء الذى تمت به عملية العبور، لم يكن ممكنا لأى جيش آخر فى العالم أن يفعل ما هو أفضل منه»..

كل ذلك تزداد قيمته أضعافا حين نعرف أنه لم يكن لدى قواتنا التفوق فى التسليح، بل كان الأمر - كما قال القائد العام لقواتنا المسلحة فى ذلك الوقت - الفريق أول أحمد اسماعيل على - فى إجتماع للقادة قبل الحرب «أننى أعترف بأن هناك أسلحة ومعدات - لدى إسرائيل - أكثر تقدما عما لدينا فى بعض التخصصات.. ولكن من قال إن السلاح الذى فى يدنا

إنعدمت مقدرته أو غير كفء أو غير متطور..؟ إن من يقول ذلك يستهدف عن قصد إيجاد ذريعة لعدم القتال..»

كل ذلك والموقف العسكرى بالنسبة للقوات المسلحة المصرية فى ٦ أكتوبر ٧٣، كان أصعب مئات المرات من موقفها فى حرب يونيو ١٩٦٧، وإسرائيل تقف على الحدود التى اعتبرتها حدودا آمنة، وقد أصبح لها التفوق العسكرى من حيث كميات الأسلحة، ومن حيث وقوف قواتها على خطوط تمثل أفضل الأوضاع العسكرية الاستراتيجية لها، ومخابراتها لها شهرة فى معرفة الدقائق والأسرار والاختراق.. كما يروى رواة الحكايات والأساطير.

مع كل ذلك.. وأكثر من ذلك.. انهار خط بارليف.. بالعقلية المصرية.. بالرجال المصريين. وبروح مصر الحقيقية.. وبالتخطيط والعلم.. والتدريب.. وبالنظرة الواقعية دون خداع للنفس، أو قتل العزيمة.. بوسائل غير تقليدية، ولا تعتمد على تكنولوجيا متقدمة أو مرتفعة التكاليف.

فى نظرى أن الرموز فى خط بارليف يجب التركيز عليها.. ولذلك أتمنى أن تصبح مذكرات المشير الجمسى مقررة على طلبة الثانوية العامة والجامعات، وأن يكون خط بارليف بالذات برموزه ودلالاته موضوعا يدرس بالتفصيل لتلاميذ فى المراحل المختلفة بما يناسب درجة نضج التلاميذ فى كل مرحلة، ليس فقط لمعرفة إنجاز هو موضع فخرنا على مدى الزمن، ولكن ليكون هذا منهجا أمام كل صعب يواجه الوطن أو يعترض مسيرة الوطن.. لكى تدرك الأجيال الجديدة من المصريين أنه ليس هناك شىء مستحيل.. ولكن هناك شيئا صعبا يحتاج إلى عمل وجهد وصبر وتخطيط وأن الإنسان المصرى أقوى من كل ما يمكن أن يقف فى طريقه، أو يعوق إنطلاقه اليوم وغدا..

هناك خط بارليف سوف يقف أمامنا سدا مانعا لنمونا وانطلاقنا الاقتصادي.. هناك ركام هائل من المشاكل.. وهناك تحصينات منيعة

يتربص لنا وراءها وفى داخلها أعداء.. الجهل.. البطالة.. الإرهاب.. التفكير الخرافى.. محاولات الهيمنة والسيطرة.. خطوط بارليف كثيرة، ولكن سيظل المصريون هم هم، فى أعماق تكوينهم، بروحهم التى لا يمكن أن تستسلم.. أو تنهزم.. أو تموت..

وكلما توقفنا أمام انتصار أكتوبر، نقف فى ذكراها بالتحية لكل شهداء ٦ أكتوبر و ٥ يونيو وشهداء ١٩٥٦ و ١٩٤٨.. فإن تضحياتهم هى التى صنعت النصر.. ومن تراكم التضحيات يأتى ثراء التاريخ، وقوة الإرادة.

وأيضا هذه مناسبة للوقوف تحية للقوات المسلحة التى أثبتت وتثبت أنها مستودع الخبرة والكفاءة المصرية، والقطاع الأكثر تقدما فى الإدارة والتعامل مع التكنولوجيا الحديثة، كما أنها أكثر قطاعات الدولة انضباطا وتنظيما، وهى أيضا كانت وستظل مستودع الشجاعة والتضحية.. وفيها أغلى الرجال علينا..

هذه مناسبة، نشعر فيها بأننا إردنا وفعلناها.. وحققنا ما أعتبره العالم معجزة.. ومازال هذا الشعب محملا بنفس القدرات والطاقات والإرادة التى تجعله قادرا على أن ينطلق فى بناء مستقبله واثقا من نفسه ومن قدرته على قهر كل مستحيل.. وتحقيق معجزات أخرى كثيرة..

٩

ثأر جيل ..

أتيح لى بحكم عملى أن ألتقى بعدد غير قليل من أبطال حرب أكتوبر ، وسمعت منهم قصصا وروايات تفوق الخيال ، وكل قصة منها تستحق أن تكون كتابا ، أو فيلما سينمائيا ، أو مسلسلا تلفزيونيا .. ولم لا .. ؟ أليس من حق الشباب المصرى – والعربى – أن يكون على صلة بالجوانب المضيئة من تاريخ وطنه ، وأن يعيش حياة الأبطال الذين لم يخلو منهم تاريخ مصر على مدى العصور .. ؟ وكل الدول تخلد بطولات أبنائها فى أعمال فنية درامية وتساعد على تصور الأحداث ، وتجعلها حية من لحم ودم أمام الأجيال المتعاقبة .. ومن بين كثيرين قابلتهم لا أستطيع أن أنسى هذا الشاب الهادئ ، الفلاح البسيط ، الذى يعيش الآن كموظف فى مجلس مدينة أبو المطامير بحيرة ، ويسير بين الناس بهدوء وحياء ، ولا تستطيع بسهولة أن تصدق أنه بطل بكل معانى البطولة ، وأنه حقق معجزة عسكرية دخلت التاريخ وضرب أرقاما قياسية لم يسبقه إليها أحد .

ولعلنا نذكر البطل عبد العاطى (صائد الدبابات) الذى أصاب ٢٢ دبابة إسرائيلية وخرج سالما .. أما هذا الشاب فقد أصاب ٢٦ دبابة إسرائيلية ، ولم يستخدم إلا ٣٠ قذيفة . وساق عددا من الأسرى الإسرائيليين كان من بينهم العقيد عساف ياجورى القائد الإسرائيلى المعروف .

اسمه : محمد عبد المنعم المصرى

من مواليد قرية (شنباره) مركز دير نجم شرقية .

تاريخ مولده دلالة خاصة ، فقد ولد فى عام ١٩٤٨ ورضع من أم يثقلها هم (النكبة) .. والجيش المصرى يخوض حربا فى فلسطين بلا خطة . ودخلت هزيمة ١٩٤٨ فى نسيج كيانه كله ، وفى تكوين عقله الباطن .

كان فى الرابعة من عمره عندما قامت ثورة ١٩٥٢ .. وكانت أذناه تلتقطان أحاديث أهل القرية بالفخر والأمل فى جيش مصر ، ورجاله .

وعاش الأيام الحزينة فى القرية بعد نكسة ١٩٦٧ وسمع من شباب القرية الذين اكتووا بنار المأساة وهم مجندون فى الجيش مرارة إحساسهم بالألم للانسحاب بلا قتال .

وجاءه الدور للتجنيد ،وتحقق حلمه فى أن يدخل سلاح المظلات ، وكانت سعادته لا تقدر حين اختاروه للتدريب على ذلك المدفع الصاروخى الصغير المضاد للدبابات ، كان سلاحا حديثا لا يختارون لاستعماله إلا من يجتاز اختبارات تؤكد ارتفاع مستواه فى اللياقة البدنية ، وتحمل المشاق ، ويقظة العقل ، والذكاء، وسرعة البديهة ..

كانت الدعايات الإسرائيلية فى أزهى عصورها ، تكيل الاتهامات إلى الجندى المصرى ، تصفه بالتخلف ، والجهل ، فكيف يقف فى مواجهة الجندى الإسرائيلى المتعلم المتحضر .. ؟ وكانت بعض هذه الدعايات تصل إلى أذنيه فتملؤه رغبة فى أن يقف أمام الجيش الإسرائيلى كله .. ليصيح فيهم .. تعالوا واحدا واحدا لنرى النتيجة ..

فى اختبار الرماية العملية بعد انتهاء فترة التدريب الشاقة كان ترتيبه الأول ، ولم يخطئ هدفا . وانضم إلى كتيبة عملها أقرب إلى أعمال الفدائيين .. وكان جنديا لامعا .. صمد فى فترات الصمود .. وشارك فى معارك الردع، ومعارك الاستنزاف .. وقبل المعركة إختاره المقدم صلاح حواش قائد الكتيبة الذى استشهد بطلا خلال المعارك بعد أيام من اندلاع

حرب أكتوبر .. وقال عنه قائده إنه (اكتسب لياقة جسمانية فائقة ويستوعب كل خصائص سلاحه ، حاد النظر كالصقر ، ثابت الأعصاب مثل نمر .. خفيف الحركة .. الخ .

وجاءت فرصته .

عبر القناة من الموجات الأولى، فى الثالثة مساء٦أكتوبر، وكانت الدبابات الإسرائيلية قد تقدمت فى محاولة لتدمير القوات المصرية قبل أن تنضم إليها القوات المدرعة.. وبدأ طابور طويل من الدبابات القوية (ام - ٦) - وهى أحدث دبابات فى العالم فى ذلك الوقت- يحاول تطويق الكتيبة .. وبدأ الفلاح المصرى يعمل .. لحظة من الصعب تصوير ما فيها من إثارة .. الصحراء الواسعة وفيها كتيبة مظلات مصرية فى مواجهة طابور طويل من الدبابات .. وانطلق أول صاروخ من مدفع محمد المصرى فانفجرت دبابة وارتفع اللهب .. بعد دقيقة أجهز زملاؤه على أربع دبابات أخرى .. ودفعت إسرائيل بقوة ثلاثين دبابة وبدأ الهجوم المدرع رهيبا .. غبار الدبابات يتصاعد ، والرجال صامتون يحبسون أنفاسهم فى انتظار المواجهة : الرجل أمام الدبابة ، والله ثالثهما .. وتدخل الدبابات مدى الصواريخ فتنطلق .. الرجال يدمرون ١٧ دبابة .. وزملاؤه ينظرون إليه وعيونهم تلمع بالإبتسام وسط النار والدمار .. إن وقوع الدبابة فى مدى صاروخه كان يعنى هلاكها ، ولا يبقى منها إلا فحيح ودخان .. همس قائده فى أذنه : عظيم .. دمرت وحدك ٨ دبابات .. وكان فى غمرة الانفعال والحماس لا يدرى بالضبط كم دبابة أصاب ..

بعد لحظات تقدم تسع دبابات إسرائيلية بأقصى سرعة وهى تطلق كل أسلحتها ورشاشاتها ، وقذائف الدبابات تسقط حول الرجال وهم فى العراء.. ويقف محمد المصرى .. فى لحظة نادرة من لحظات البطولة الإنسانية ليطلق الصاروخ فيدمر دبابة .. ويلحظ دبابة متميزة فى موقعها

بين الدبابات الأخرى فيدرك أن فيها قائد الهجوم الإسرائيلى .. يصوب نحو: الله أكبر .. وتشتعل الدبابة .. ويهرول منها العقيد عساف ياجورى قائد اللواء ١٩٠ مدرع .. ويستمر محمد المصرى فى القتال : وفى لحظة ينال ترقية من رتبة عريف إلى رتبة الرقيب .. ويظل يضرب .. والدخان يملأ سماء المنطقة .. وزملاؤه يصيحون .. الله أكبر .. عشرين .. الله أكبر واحد وعشرين .. الله أكبر .. وحين توقفت المعارك جلس وسط زملائه يستمع منهم ومن رؤسائه تفاصيل المعجزة التى حققها دون أن يشعر : تدمير ٢٦ دبابة ..

وأصبح واحدا من قلة تحمل وسام نجمة سيناء وهو أعلى وسام عسكرى فى مصر .

حين رأيته سألته :

– ماذا كان شعورك وأنت تواجه الدبابات والنيران والموت ..

قال بصوته الهادئ الخجول :

– لا أدعى المعجزات .. أنا إنسان مصرى عادى جدا .. أنا فلاح .. كنت أريد فرصة لأرفع رأسى بين أهل قريتى وأقول لهم إن الجندى المصرى يستطيع أن ينتصر إذا وجد الفرصة .. والفرصة يعنى خطة .. وتدريب .. وقادة ..

فلاح مصرى واحد وقف فى مواجهة أقوى الدبابات فى العالم ودمر وحده ما يزيد على نصف كتيبة دبابات ..

سألته :

وما هى اللحظة التى لا تفارق حياتك .. ؟

قال:

هى اللحظة التى كنت أصوب فيها الصاروخ إلى أضعف نقطة فى الدبابة وهى الخط الذى يفصل بين (البرج) وجسم الدبابة ، فأجد برج الدبابة

يطير فى الهواء وتشتعل النيران فيها وصيحات زملائى حولى: الله أكبر ترن فى الصحراء وتعلو فوق أصوات الدبابات والقذائف وتهز الجبال.. وكان يساعدنى من داخل حفرة الموقع اثنان من زملائى يقومان (بالتعمير) وتجهيز الصاروخ ويصيحان معا من داخل الحفرة: اضرب.. اضرب يا محمد..

لم يكن محمد المصرى يدرك حقيقة ما فعل إلا يوم ٨ أكتوبر حين استدعاه قائد الفرقة اللواء حسن أبو سعده، وما أن رآه حتى وقف مصافحا وهو يقول له: (أهلا يا بطل) وشد انتباهه منظر غريب، بالقرب من القائد كان يجلس أحد العسكريين الإسرائيليين بزى عسكرى مميز، وشعر طويل، وكان مطرق الرأس حزينا، وما أن رأى محمد المصرى حتى رفع رأسه وظل يحدق فيه، وقال له اللواء حسن أبو سعده، وهو يشير إليه: (هذا هو العقيد عساف ياجورى) قائد اللواء١٩٠مدرع الإسرائيلى، لقد أراد أن يرى الرجل الذى دمر دبابته ..

ومرت الأعوام .. وعاد محمد المصرى إلى عمله فى مجلس مدينة ديرب نجم ، وتزوج فى عام ١٩٧٩ وأنجب حسام ، وعلية ، وحشام .. ثم انتدب للعمل فى مجلس مدينة أبو المطامير ..

تراه فلا تكاد تميزه عن غيره من ملايين المصريين فى كل شارع وكل مصلحة وكل حقل .. ولكن جوهر المصرى الكامن فيه ، وفى كل المصريين، ظهر فى اللحظة المناسبة .

البطل الثانى عبد العاطى .. من مواليد قرية (شيبة قش) مركز منيا القمح شرقية عام ١٩٥٠ - حصل على دبلوم زراعة ثم جند فى نوفمبر ١٩٦٩ ، ثم حصل على بكالوريوس زراعة بعد تسريحه من الخدمة .

يقول عن نفسه فى حياء :

متزوج ولدى أربعة أبناء (وسام - حسام - أحمد - بسمة) أعمل الآن فى الإدارة الزراعية .

عندما كنت فى العاشرة من عمرى توفى والدى .. كنا خمسة أشقاء أنا أصغرهم ، نمتلك فدانا ونصفا فأتاح لنا ذلك حياة متوسطة .. تعلمت من قريتى (شيبة قش) الكثير .. الأصالة ، إنكار الذات ، التواصل الوجدانى مع الآخرين .

بعد تجنيدى تم تدريبى على الصواريخ المضادة للدبابات ، كان سلاحا حديثا وقتذاك وله أهميته وسريته وكنت أدرك ذلك وأنتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى أخرج فيه من نطاق التدريب إلى الواقع القتالى الحى ..

بعد النكسة كانت بيوتنا جريحة وحزينة ، شىء ما فى الناس انطفأ .. هل هى الروح ، أم أنها النار اختفت تحت الرماد ، ضربات العدو لنا كانت تحت الحزام .. الغضب الحزين الصامت ينتظر ، وكنت معه فى انتظار ..

التحقت سريتنا بالفرقة ١٦ مشاه كتدعيم مضاد للدبابات، كنا فى سرابيوم بالقاع الأوسط . هلى كانت مصادفة أنا أصبحنا فى موضع القلب تماما من قواتنا ..؟

كنت رقيب أول السرية حين عبرنا القناة فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر ٦ أكتوبر . وكانت مهمتنا هى تأمين القوات المترجلة ، واحتلال رأس كوبرى على الضفة الشرقية ، وتأمين المنطقة على مسافة ثلاثة كيلومترات ..

لم يكن الموت يخيفنى حقيقة ، ولكننى كنت أخشى برغم ثقتى المطلقة فى قدراتنا أن تتكرر مأساة النكسة ..

ما زلت أذكر إلى الآن أول دبابة دمرتها وكانت على بعد عشرة كيلو مترات من القناة .. كانت تزحف مولولة - حين أطلقت الصاروخ نحوها - تنعى حظها العاثر ..

فى يوم الثامن من أكتوبر دمرنا فى كمين للعدو ثلاث عشرة دبابة وثلاث عربات نصف جنزير ، وبعد إنتهاء الكمين فوجئنا بأننا محاصرون .. نزلنا فى منخفض تحيطه المرتفعات من كل جانب .. كنا كالصيد الذى وقع فى الفخ . ماذا نفعل .. ؟ لم يكن أمامنا إلا أن ننصب الصواريخ على أقصى زاوية ارتفاع لها (٢٢٠ ديسيمتر) وهذا لم يحدث أبدًا فى التاريخ ، وكانت إذا ما أطلت دبابة على مرتفع لتضربنا تفاجأ بصاروخ يدمرها .. دمرنا لهم الكثير من الدبابات بهذه الطريقة ولم يستشهد منا أحد ، وكسرنا الحصار .

كانت المعركة الأكبر مع اللواء ٢٩٠ مدرع الإسرائيلى . دمرنا الكثير من دباباته ولم يهرب منها غير ست عشرة دبابة دمرتها العناصر المضادة للدبابات بالفرقة الثانية .

بالطبع هذا الكلام يؤكد ما قاله لى محمد المصرى بأنه هو الذى دمر دبابة عساف ياجورى قائد اللواء ١٩٠ مدرع .

يواصل عبد العاطى حديثه قائلاً : كنت أشعر فى هذه الأيام بأننى ملك المنطقة .. نعم .. فأى إنسان يمتلك سلاحًا قويًا جدًا ويؤمن بالله .. ويدافع عن وطنه بكل إرادة وقوة .. لن يشعر بغير ذلك .. دون ادعاء غرور أو كبر ..

لم أدمر ثلاثًا وعشرين دبابة من فراغ ، ولكن بالعرق فى التدريب حتى اكتسبت المهارة المطلوبة للمقاتل .

لم أحارب من أجل تكريم أو وسام ، ولكنه ثأر جيل .

نعم كرمتنى الدولة .. ومنحتنى وسام نجمة سيناء ، وكنت ضمن المكرمين فى جلسة مجلس الشعب التاريخية ، وأعترف بأن شعبنا غمرنى

بأكثر مما أستحق ، فأنا ابن من أبنائه ولم أقم إلا بواجبى نحو الله والوطن ..

أحمد الله أن وهبنى حب الناس وأعلنها صراحة بأن حياتى أرخص من دمعة ابن شهيد من شهدائنا الكرام فى الحروب المتتالية .

نظرات الناس لى الآن أوسمة أعلقها على صدرى كل صباح ومساء كورود لا تذبل .

لو منحنى الله الحياة أكثر من مرة لوهبتها لك يا وطنى كل مرة ..

* * *

مجرد نموذجين من بين أبطال كثيرين يجب كتابة قصة بطولة كل منهم بالتفصيل فى سجل شرف نحفظه للأجيال المقبلة .. أليس هذا تاريخا مشرفا ؟

وإذا كانت أمة فيها مثل هذه النماذج للبطولة التلقائية .. فهل يمكن أن تفرط فى تاريخها .. وهل يمكن أن تعرضه للنسيان .. وهل يمكن أن تغيبه عن وعى شبابها .. ؟

(١٠)
قرار يغير التاريخ

مهما طال الزمن فسوف يظل الموقف العربى الواحد فى معركة البترول عام ١٩٧٣، لحظة من اللحظات التى غيرت التاريخ بحق على حد تعبير صاحب قرار الحرب الرئيس الراحل أنور السادات.. لحظة من اللحظات التى تكشف جوهر هذه الأمة. ففى الظاهر كانت الأمة العربية شظايا متفرقة، ولكنها فجأة انتفضت لتظهر على حقيقتها، أمة واحدة. ولابد أن تبقى فى ذاكرة الأجيال العربية هذه اللحظة حية تلهمهم الطريق الصحيح لأنها ليست إلا تعبيرا عن حقيقة قائمة، ودائمة، ولا يمكن النيل منها مهما أحيكت المؤامرات، وأحكمت الخطط من جانب أعداء الوحدة العربية. وهؤلاء الأعداء يعرفون أكثر من غيرهم كيف يمكن أن يتغير حال العرب من التخلف إلى التقدم، ومن الضعف إلى القوة، ومن الاستسلام للمقادير إلى امتلاك زمام المبادرة والقرار، وفرض الإرادة، وصنع المستقبل.. فقط حين تتوحد كلمتهم.

ولأنى أحب أن أتأمل من حين لآخر تفاصيل هذه اللحظة، وأرى أنها حتى الآن لم تأخذ حقها من الدراسة والتعمق فى فهم دلالاتها، فقد وجدت بعض ما أسعى إليه فى رواية السيد حسن التهامى الذى كان قريبا من الرئيس الراحل أنور السادات أثناء فترة الإعداد لحرب أكتوبر ثم الإعداد لاتفاق السلام مع إسرائيل. ورواية حسن التهامى كما عاشها داخل كواليس السياسة المصرية والعربية تشير إلى حقائق وأسرار، من بين أسرار كثيرة لم تتكشف تفصيلاتها بعد..

يقول السيد حسن التهامى: فى الأسبوع الأخير من يونيو عام ١٩٧٣ عقد الرئيس السادات اجتماعا لمجلس الأمن القومى فى استراحته بالقناطر، حضره جميع أعضاء المجلس، ولأول مرة عرض الرئيس فى هذا الاجتماع على هذا المستوى من المسئولية - ظروف دخول الحرب مع إسرائيل، وضرورة استرداد الأرض. وأعطى الكلمة لكل عضو فى المجلس ليدلى برأيه بصراحة، واكتفى هو بكلمات قليلة قال فيها:

- إن اجتماعنا هذا لإقرار مبدأ فى ضوء ما ترونه لدخول المعركة بعد أن ضاعت كل الجهود السياسية والاتصالات الثنائية والدولية، ووصلت إلى طريق مسدود، ولم يبق أمام مصر إلا أن تستعيد حقها بقوتها المقاتلة. وقد سبق أن أعلنت احتمال دخول الحرب أكثر من مرة، إلا أن اجتماعنا هذا اجتماع تاريخى سنستعرض فيه سويا إمكانات خوض المعركة العسكرية فى ظروفنا التى شرحتها وتعرفونها. فالمعركة أصبحت ضرورة واجبة، وأود أن أستمع لكل من يريد أن يدلى برأيه بصراحة، بدافع من ضميره الوطنى، ومن موقع المسئولية.

وأدلى كل من حضر الاجتماع برأيه. وكانت جلسة صريحة. شرح فيها وزير الدفاع موقف الجيش فى تلك المعركة باختصار ووضوح، وتحدث الآخرون، وتحدث حسن التهامى - كما يقول فى روايته فقال: إن المعركة معركة عربية إسرائيلية وليست مصرية إسرائيلية، ولذلك فلابد من اتخاذ إجراءات اشتراك الدول العربية المعنية معنا فى الحرب، وفى مقدمتها دول المواجهة بطبيعة الحال، وإحكام التنسيق معها، لتكون المعركة معركة واحدة وشاملة.. وأن عروبة المعركة معناها اشتراك وحدات عربية مقاتلة مع الجيش المصرى فى خط القتال، وهذا من شأنه أن يحرك كل دولة بمؤسساتها وشعبها ليتفاعل مع المعركة بالتزاماتها.

وانتهى الاجتماع والشعور السائد أن تبدأ المعركة بعد ثلاثة شهور تقريبا، لأن طول المدة التحضيرية قد يضر بقضية الحرب. وبعد انتهاء

الاجتماع تحدث التهامى إلى السادات عن أهمية سلاح البترول كجزء لا يتجزأ من قومية المعركة، وأن مفتاح هذا السلاح عند الملك فيصل، أو على الأقل يبدأ من عنده.

وتقرر فى هذه اللحظة أن يسافر التهامى لمقابلة الملك فيصل، وطلب السادات من سكرتيره الخاص السيد فوزى عبد الحافظ إرسال برقية عاجلة إلى الملك فيصل يقول فيها: «حسن التهامى فى طريقه إليك وسيأتيك من طرفى لمشاورات هامة».

يقول حسن التهامى إنه وجد الملك فيصل قد استشعر موضوع هذه المشاورات بحسه المرهف فقد جمع كبار المسئولين فى المملكة، وكأنه بذلك قد جمع مجلس الأمن القومى السعودى.. وتحدث التهامى أولا عن إحياء التضامن العربى ودعمه، وأن ما تنتجه مصر هو للعرب جميعا، وعرض أن المصانع الحربية المصرية فى حاجة إلى ٣٠٠ مليون دولار ولم يتردد الملك فيصل وقال بهدوء: سوف نلبى احتياج المصانع الحربية بما طلبت. وأشار إلى الجالسين بنظرة تعنى أن يتولى كل منهم التنفيذ فى اختصاصه، وبعد ذلك بدأ التهامى فى شرح مهمته.

قال التهامى: لقد جئت للتفاهم معكم على الوضع السياسى والمعركة.

فسأل الملك فيصل: طمئنى أولا ما هو وضعكم؟ هل ينقصكم شىء.. ذخيرة.. سلاح.. أى شىء..؟

وبعد مناقشة اطمأن بها الملك فيصل على أوضاع القوات المسلحة المصرية بدأ التهامى طرح الفكرة التى جاء من أجلها وهى أن المعركة العسكرية ليست مصرية إسرائيلية، بل هى معركة مصرية دولية، ولهذا فإننا بفكرنا الاستراتيجى نرى وجوب وجود عنصر ضاغط حقيقى على القوى العالمية حفاظا على مكتسبات المعركة، وذلك يتمثل فى نقطتين:

أولهما: التوافق العربى الذى ينبغى إحياؤه بما فى ذلك العمل العربى المشترك فى المحافل الدولية. وتنسيق هذه المواقف والبدء فيها من الآن هو جزء من إدارة المعركة بالمعنى الأكبر والأوسع. ولتوسيع دائرة المسئولية العربية ومشاركتها فإننا سندعو الدول العربية الشقيقة للإسهام معنا فى القتال على أرض المعركة ولو بوحدات قتالية رمزية.

وبعد فترة قصيرة من تبادل الآراء انتقل الحديث إلى النقطة الثانية، فقال التهامى:

– أما النقطة الثانية فهى أن ٥٠٪ من قوة المعركة تكمن فى سلاح البترول..!

وعندئذ تطلع الجميع إليه، وارتسمت ملامح الجدية الشديدة والاهتمام على ملامح الملك فيصل.. ودار نقاش طويل.. قيل فيه إن هذا القرار صعب، واستفسر البعض عن الموازين والحسابات السياسية بالنسبة لهذا القرار وكيفية استخدام هذا السلاح، وكونه فعالا يفيد المعركة، أو قد تكون له آثار عسكرية. وتساءل وزير الدفاع السعودى عن الموقف العسكرى إذا استخدم البترول كسلاح، وموقف الدول الكبرى من دول الخليج البترولية.

وتحدث التهامى عن احتمالات الموقف الأمريكى والأوربى والمواقف الأوربية المستقلة عن أمريكا، وأن الأساس فى سياستنا مع دول أوربا هو وضع مبدأ المصلحة الذاتية لكل دولة من دول أوربا كمقياس للتعامل معها، والتعامل مع أوربا كلها من ناحية المبدأ على أن لها مصالح مباشرة فى دولنا، فإذا شعرت أوربا بأن هناك تغيرا جديا فى السياسة العربية البترولية، وأن الضرر قد يلحق بها نتيجة تبعيتها لأمريكا، فيكون لها موقف مختلف، والميزان هو السعى لزرع مفاهيم جديدة للعقلية الأوربية تجاه قضية الشرق الأوسط والعدوان الإسرائيلى على الأرض العربية، وعن

استعداد المجتمع العربى ككل لبناء علاقاته مع أوربا على أسس المصالح ومن أهم هذه المصالح البترول، والأسلوب السياسى الأمثل مع أوربا يبدأ بالتلميح، ثم التصريح، ثم الإنذار بالقطع عن من لا يحترم إرادة العرب فى المعركة القادمة، ولنترك للرأى العام الأوربى، وللاقتصاديين والسياسيين فرصة الشهور القادمة لاستيعاب حجم الخسارة إذا لم تتجاوب دول أوربا مع المصالح العربية العادلة، وهدفنا الحقيقى ليس تحطيم المصالح مع أوربا، بل يجب أن تظل أوربا متيقنة بأن أمل التفاهم مع العرب لم ولن ينقطع، ولتتجنب التصادم مع العرب، لا سيما والقضية ليست مواجهة عربية أوربية، ولكنها مواجهة لوضع الحدود التى تحرم إسرائيل من المساندة اللانهائية التى سبق أن تمتعت بها فى عدوانها على العرب واحتلالها لأراضيهم ورفضها لتنفيذ القرارات الدولية.

واستطرد التهامى فى شرح كافة الاحتمالات لردود أفعال أمريكا ودول أوربا بما فيها احتمالات التدخل العسكرى للسيطرة على مواقع البترول، وانتهى إلى أن التدخل العسكرى مستبعد بغير رضا دول الخليج لأسباب عديدة شرحها بالتفصيل.

ثم أخيرا وجه التهامى حديثه للملك فيصل قائلا:

– إننى لا أمتدحك.. ولا أقول ما ليس بحق، وأقولها صراحة أمام هذا الحشد الموقر بأن القرار الآن هو قرار فيصل.. إن قرارك الآن قرار التاريخ.. وأنا أعلم مع من أتكلم، وكما يعرف غيرى من هو فيصل..

فقال الملك:

– أنا لى رجاء..

ثم استطرد:

– طال عمرك.. أنا اقتنعت.. وأسأل الله أن يوفقنى فى عملى.. ولكن أليس فى خططك أن تقابل رؤساء دول الخليج لتناقش معهم هذا الموضوع كما ناقشته معى..؟

وأجاب التهامى:

– لن أتحرك من هنا لألتقى برئيس دولة أخرى، لأنى إذا ناقشت هذا الموضوع مع أى رئيس دولة أخرى فى الجزيرة فقد يطلب منى العودة فى الرأى إلى الملك فيصل، ولذلك أنا أقولها بصراحة إن القرار يبدأ من هنا.. وبناء على هذا القرار سنحدد موقفنا.. وعليك أنت أن تقول للتاريخ بقرارك نعم أو لا.

وسكت الحاضرون جميعا.. وقال الملك فيصل:

– طال عمرك.. أنا اقتنعت.. وسأفكر.

ومعلوم عن الملك فيصل التروى فى القرارات لأنه يلتزم بما يقول، وتعبيره «أنا اقتنعت وسأفكر» هو الرد الدبلوماسى المعروف عنه والذى مؤداه أنه سيفكر فى التنفيذ، وليترك لنفسه حرية اختيار التنفيذ بأسلوبه هو.

وأعاد التهامى سؤاله:

– إنها معركة.. وأريد أن أخرج من هنا بفهم واضح محدد، مع احترامى لما تقول، وتقديرى لكل كلمة، وفهمى لها تماما.

فقال الملك فيصل:

– إننى قلتها فى صيغة إن شاء الله.. والله سبحانه وتعالى يمكننى من الوفاء بالوعد.. وسأقطع إن شاء الله.

قال التهامى:

– سأبلغ الرئيس السادات شخصيا بذلك، لتكون حسابات المعركة واضحة تماما.

فقال الملك فيصل:

– على بركة الله.. اعملوا ما عليكم.. والله يوفقنى أن أعمل ما على.. وأنا عند كلمتى إن شاء الله.

وحين روى التهامى للسادات تفاصيل اللقاء قال السادات:

– هذا قرار يغير التاريخ.

وقال التهامى

– إننا نتعامل مع فيصل.. فهو وحده الذى يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار.. لا قبله حدث.. ولا بعده.

والتقى السادات بالملك فيصل يومى ٢ و ٣ أغسطس ١٩٧٣. وعند مغادرة الطائرة مطار الرياض قال السادات:

– يا حسن.. الآن فقط نستطيع أن ندخل الحرب.. وأنا واثق فى كلام فيصل لأنه إذا وعد أنفذ وعده.

لا يمكن أن يتحدث مؤرخ منصف عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولا يضع قرار الملك فيصل فى موضعه الصحيح، ولا يضع الملك الراحل فى مكانه التاريخى كقائد عربى تاريخى كان له فضل كبير فيما تحقق من انتصارات أكتوبر فلقد كان سلاح البترول قوة ضغط لا تقل عن قوة ضغط القوات العسكرية المصرية، كانت آثاره السياسية هائلة، وكشف الغطاء عن معدن هذه الأمة، التى تبدو فى الظاهر أشتاتا متفرقة، لكنها وقت الخطر تتوحد كالجسد الواحد، ولقد اخترت أن أقدم رواية حسن التهامى لأنه عاش فى قلب الأحداث، وكان داخل الغرف المغلقة، واستطاع أن يروى التفاصيل الحية والدقيقة لموقف سيظل فى التاريخ خالد.. وأتمنى أن ينشر مذكراته كاملة ليعرف العرب جانبا أكبر من حقائق تاريخ مشرف.

وللذين يظنون أن انتصارات حرب أكتوبر فى التاريخ المصرى والعربى يمكن أن تكون هى الأخرى سلعة للبيع، أعتقد أن مثل هذا المشهد المهيب وحده يكفى ليفيقوا وليدركوا أن فى حياة الشعوب مواقف، ورجال، وقرارات، لا يمكن نسيانها، أو التفريط فيها.. ولأنها معادن نفيسة، فإن مرور الزمن يزيدها قيمة، ويرفع من قدرها أمام الأجيال، ويزيل ما علق بها من غبار الموتورين والتاجرين بالتاريخ.